مضارب في سوق الحب

الشباب كله قلب ، ولكن في الاغلب لاعقل له ! ..

هذه هي الفكرة التي سيطرت على خيالي وانا اطل من شرفة فندق « فوريجن » من ارتفاع ٩٠٠ متر – على بحيرة لوسرن الساكنة الجميلة ، وافكر لاخفاق ذلك الشاب الشرقي الوسيم الذي كان في الشرفة منذ هنيهة ، تضوى في خنصره الايسر ماسة ضخمة ، ويتضوع من شعره الفاحم أريج عطر مجهول ، ويتألق هو نفسه – كأنه ابن مهراجا – ولكن بلألاء الصحة والعافية والشباب ...

ان اثنين من المدافع الربانية لرشاشة ظلا مصوبين الى قلبه بضع دقائق ، من عيني انثى شقراء ، كانت هي كذلك تجلس منذ هنيهة بشرفة الفندق ،وما اكثر الشقراوات في فندق فوريجن ... من كوبنهاجن ومن جلاسجو ومن لندن ، ومن فيلادلفيا ومن زيوريخ ، ومن لوسرن ، ولكن هذه الشقراء بالذات كان لعينيها فعلا لون الرصاص وفتك الرصاص ، وعندما رأيتها وهي تسدد طلقات مدفعيها باحكام ، أيقنت ان المسكين لن يقاوم ، فقد كانت الطيبة تنبع من تقاطيع وجهه السمح ، وكان قلبه الغرير يطل من عينيه ... قلب طفل اعزل من السلاح – او هكذا بدا لي – مجرد من الابراج والحصون . .

ولما انسحبت الشقراء الفاتنة ، وانسحب الشاب الشرقي الوسيم وراءها ، تنهدت . . . وقلت : امرأة موفقة ! !

ثم تشاغلت عنهما بالتأمل فى وجه البحيرة ، التى تبدت صفحتها كالمرآة ... والتى استودعت كالمرآة اسرار ملايين من البشر ، فلم تبح قط بسر مخلوق ...

ووجدتنى فى النهاية احلم .. واقول ما أحلى الشباب ! . . ان الشاب يشترى الحب بزهر قبل ربما اشتراه بلا ثمن ، والكهل يشتريه بورقة بنك نوت . . . والعجوز يشتريه بوصية ... وقبل ان استرسل وجدت نفسى تفهقه سخرية منى وتقول : « ياغبى ! .. انها سوق كسكل الاسواق تؤثر فيها الاعيب القدر ، ومناورات المضاربين ، وغفلة الباعة والمشترين . . . ومع ذلك فمالك ولهذا ، قم فخذ دواءك وتعش ، وتمرغ فى السرير كالعجل كما امرك الطبيب ! ! »

* * *

ان الوجه الاشقر ذا العينين الرصاصيتين قد اختفى من حياتى الى الابد — كزورق قابلته فى الظلام ...

والشاب الشرقى الوسيم انقطعت عنى اخباره سبعة ايام ، وكدت انساه ، برغم قصة سمعتها هنا عن فرنسى مسن ، اقتادته شقراء فاتنة الى قمة جبل برجن شتوك ، ووجد فى اليوم نفسه ميتا بذبحة صدرية فى منتصف الطريق ، ومجردا من كل شىء الا من اوراقه الشخصية ، وبضعة فرنكات احسبها تركت فى جيبه ذر الرماد فى العيون ، ومن سوء الحظ انه لا يوجد قانون فى العالم يستطيع ان يشم رائحة القتل العمد فى مثل هذه الظروف ، وما كان يسع اى محقق — ولو كان شرلوك هولمز نفسه — الا ان يشكر الشقراء الحزينة ، وهى توقع بدموعها الحارة على اجابتها الكنائسية فى محضر التحقيق ..

ولكن الشاب الشرقى الوسيم لا يمكن ان يكون مريضا بقلبه ، فهو شاب ، وقوى ، وفى طابع رجولته ما يوحى بشىء من

الاتزان ، وما اظنه يخسر راس ماله ، وحياته أيضا ، بهذه السهولة ، مع ذات المدافع الرشاشة فى سوق الفرام .

اقول ان الشاب الشرقى الوسيم اختفى عن نظرى سبعة ايام ، ولكنى فى اليوم الثامن رايته فى الشرفة .. رايت ابن المهراجا من جديد .. بيد انه كان شيئا اخر يختلف تماما عما كان ...

ان مكان قلبه الملل من عينيه احتلته نظرة قلق وخوف وتشاؤم ، والوجه الذى كان يشرق بالصبا والبشر والطلاقة قد شاخ قليلا ، ونحف واصفر ، وعلاه الوجوم . كان ينقر بأصابعه على المائدة التى أمامه ، ويعض شفته السفلى باستمرار كانها هى التى اوحت له ان يجازف ويدخل السوق ، وينظر نظرات شاردة قلقة هنا وهناك ، ثم يضغط راسه بيديه كانه يداوى فيه صداعا او يمنع مخه من الطيران ... وبين الحين والحين تقذف شفتاه كلمة باللغة العربية - من دون اللغات جميعا فى فندق فوريجن - كلمة كطلقة المسدس الصامت .. يا الله .. يا الله ! ! !

والادهى من كل ذلك ان الماسة التى كانت تضوى فى خنصره الايسر لم تكن هناك ..

كان بكلمة واحدة اشبه ما يكون بمضارب افلس فى السوق !

* * *

قال الشاب مذعورا وانا أترفق جهدى واضع يدى على كاهله :

- من انت ؟؟

قلت بهدوء : انسان يتكلم بلغتك . . وربما أيضا يصلى لالهك .. واظن هذا يكفى الان

وكالحيوان المطارد الجريح اراد ان يقاوم ، ولكن قواه خانته فى لحظة ، وتلاشت ، فاختلج هنيهة واخضلت عيناه بالدموع

وبعد فترة سكوت قال وهو يمسح عينيه بمنديله ، ويضحك ضحكة الشمس فى سماء عابسة :

ـ انها اول مرة احس فيها حاجة حقيقية للبكاء ..

قلت وانا اتعب بسلسلة ساعتى ولا انظر اليه ..

ـ ماذا صنعت بك ؟؟

قال : من ؟؟

قلت : الشقراء ...

فتضرجت وجنتاه قليلا وقال مستريبا : اتعرفها ؟

قلت : كلا اطمئن .. ولكننى كالفلكى الذى يرقب النجوم من بعيد !.. ماذا صنعت بك ؟؟

قال : لاادرى .. انى مازلت مضطربا .. لقد ادخلتنى الجنة سبعة ايام ، ثم سافرت فجاة ، فصحوت كالذى استيقظ بغتة من غيابة حلم سعيد ..

قلت وانا ابتسم واتطلع الى عينيه تطلع المشفق : وهل دخل الجنة احد ومكث خالدا هناك ؟ . قل لى : اهذا كل شىء ؟؟

قال وهو يرخى عينيه : ويتشاغل بتامل انامله :

ـ قلت لك انى مضطرب ، لا استطيع التفكير .

ولا بد ان نفسه كانت حقيقة مسرحا لمعركة عنيفة فى هذه اللحظة ، تصل آثارها ، واخبارها متتابعة الى وجهه ، وتتواتر عليه كالظلال .

فانظرت قليلا واعدت السؤال :

ـ أهذا كل شىء ؟ ؟ .

فانطلق لسانه من عقال ، واندفع كانه انتصر فى اخر لحظة على الخجل الذى كان يمنعه من الكلام ، وقال ووجهه يزداد توردا :

ـ هل جربت فى حياتك ان تبيت أمنا ، شبعان ، ريان ، ثم

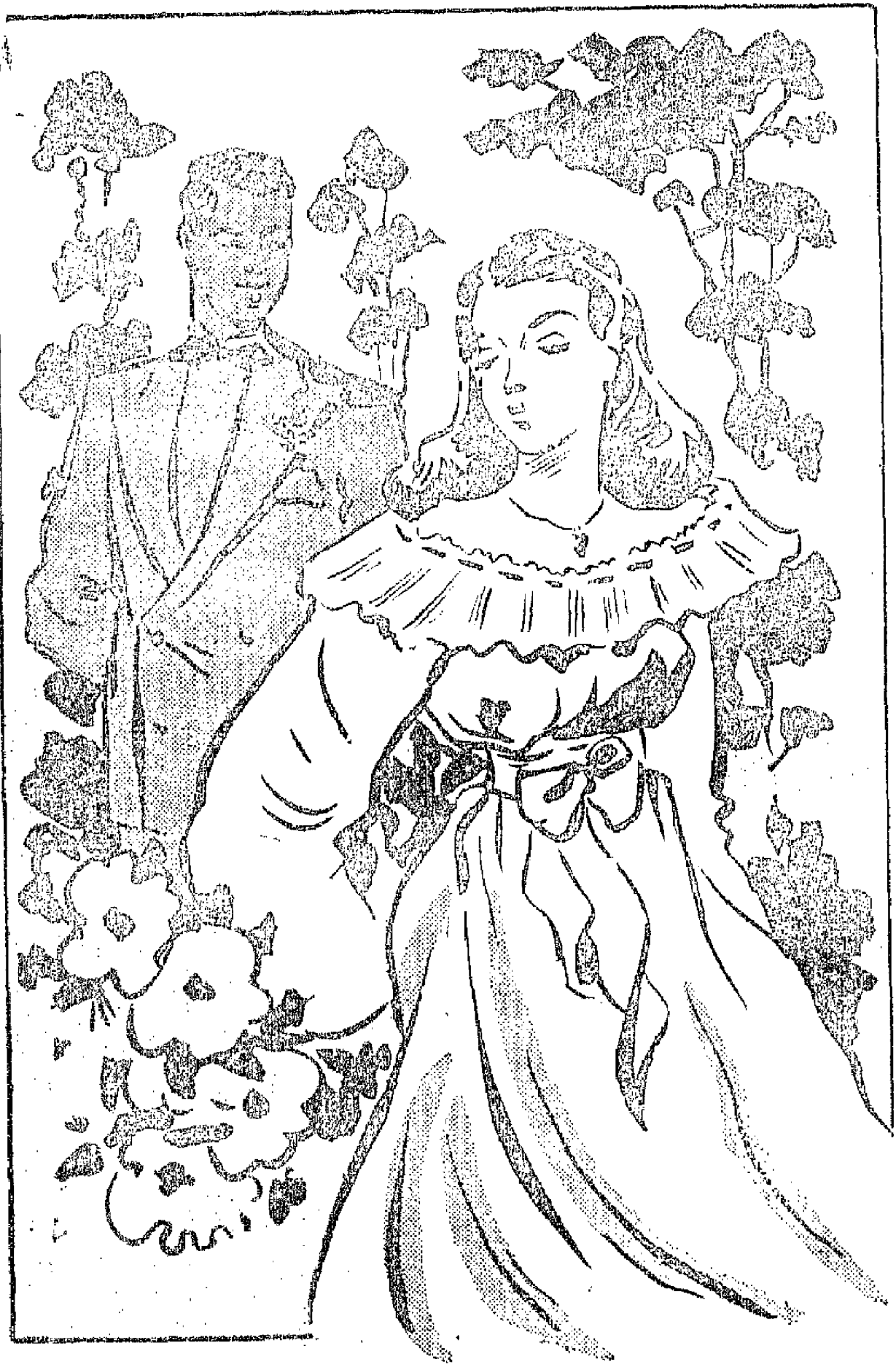

وانسحب الشاب الشرقي الوسيم وراءها

تصحو غريبا فى البلد النازح . شاعرا انك مفلس جائع طريد ؟؟

فقلت له باسما ودون تكلف :

ـ جربت اكثر من هذا ... جربت الجوع ثلاثة أيام ... وصحوت ذات يوم من نومى فى ادنبره ـ وبينى وبين بلادى .. ٤ ميل ـ لاجد فى جيبى بضعة بنسات لا تكفى حتى الافطار .. وخرجت ذات مرة من صوفر فى لبنان ، فسافرت الى بيروت ثم الى حيفا ثم الى القاهرة ، وفاتنى القطار فى الطريق : وقضيت ٤٨ ساعة عشت فيها على عنقود من العنب ومررت فى أثنائها بقارتين وثلاث ممالك : ولا احسبنى يومئذ نظرت الى الحياة من هذا المنظار الاسود الذى تنظر اليها منه الان ..

فانفرجت أسارير الشاب قليلا وتنفس الصعداء ، وقال وقد خيل لى أن ريقه يجف ، وصوته يستحيل الى همس :

ـ أتستطيع ان تقرضنى مائة فرنك لثلاثة أيام ...

قلت : نعم ! أستطيع

قال : ولا تظننى محتالا ؟ ؟

قلت : كلا ... أن للمحتال وجها غير وجهك هذا ، وصوتا أعلى من صوتك . وقد عرفت منذ أسبوعين اثنين : واحدا من أثينا فى جنيف ببيت مدام كونيار . . ان لسانه عذب كالينبوع ، منطلق كالشلال ووجهه لايحمر ابدا ، وقد أحاط نفسه بأطار أنيق فخم كأستاذ للغات ، ولو وجدنى أنا نفسى قويا فى اللغات لجعل نفسه أستاذا فى الطب ، وعرض على فى أول جلسة أن يعلمنى البريدج والرقص والسباحة واللغة الفرنسية الاصيلة أيضا بلا ثمن ، ودهشت جدا كيف يخلو وقت « عريس » فى شهر العسل ـ كما قال لى وهو يشير الى الحسناء التى كانت تصحبه وتؤمن على كل مايقول ـ لكل هذا السخاء يمطره على غريب . . . وزالت دهشتى عندما أخبرنى بمأساة تأخر ورود النقود اليه من أثينا ، وقد أودعت له هناك فى البنك منذ

بضعة أيام . ولم أعجب بعد أن أخبرته بشيء من البرود الممتزج بالرقة ، أننا — هو وأنا — في نفس الزورق من حيث موقفنا المالي ، لم أعجب عندما تجاهل فجأة هو وعروسه الجميلة ، وجودي في بنسيون مدام كونيار ، وراح يبحث عن نزيل آخر يعلمه الرقص والبريدج والسباحة واللغات ! !

وقال الشاب الشرقي ضاحكا . اذن ستقرضني المائة فرنك ؟ .

قلت : نعم .

قال : اني مستعد ان أكتب لك بها سندا .

قلت : لا تكن صغيرا . . ما قيمة هذا السند اذا كنت تنوي الاحتيال

قال : خذ ساعتي رهنا اذن . وبدأ يفك عن معصمه اسورة ساعة ذهبية ، فأمسكت بيده لمنعه ؛ وأنا اتعجب في نفسي ، كيف أعفيت هذه الساعة من مرافقة الماسة الضخمة ذات البريق الخلاب ! ؟ ؟

ثم قلت له :

— اني اضعت مئات كثيرة من الفرنكات وليس يهمني أن أضيع مائة أخرى ؛ اني اشتري القميص والرغيف ، والورقة ، والدبوس وقد اشتريت نوتة بعشرة فرنكات . . فلم لا اشتري بمائة فرنك درسا من دروس الحياة ؟ ؟ .

قال : اذن تعطيني المائة فرنك هكذا بلا قيد ولا شرط ؟ . .

قلت : بل بشرط واحد . . .

فبدأ القلق يتجلى في وجهه مرة أخرى وقال في لهجة الملهوف :

— وما هو ؟ ؟

قلت : أن تقول لي كيف وصلت الى ما أنت فيه الآن . .

* * *

كنت متوقعا حكاية طويلة ، ولكن الشاب الشرقي الوسيم ، لم يشبع في نفسي هذا الفضول ، وروى قصته بمنتهى الاقتضاب عندما قال يرد على سؤالي :

ـ لا أعلم . . ان عيونها كهربتنى فاختبلت ، وعندما سألتها ، اذا كانت تعرف الانجليزية ، وأجابت بالايجاب أشعرتنى بابتساماتها المشعشعة وبدون كلام ، أنها لاتدعونى لاتبعها فحسب ، ولكنها كذلك تعطينى مفتاح غرفتها لادخل فى أى وقت اشاء . . . هذا كل شىء

قلت : هل طالبتك بمال ؟ ؟

فأجابنى مشمئزا : انك معذور لانك لم تعرفها مثلى ، ولم تعاشرها سبعة أيام . .

قلت وانا أتجاهل اشمئزازه :

ـ أعذرنى اذا الححت عليك فلى فى ذلك أرب . . . أن المال لايطلب على الدوام بكلمة هات . . ألم تشعرك بأنها فى حاجة الى مال

وهنا تردد الشاب لحظة ثم قال بعد تفكير قصير :

ـ ربما . . . لا أدرى الا أنه مجرد اتفاق . .

قلت : زدنى بيانا . . . ارجوك

قال : فاتورة حساب اقامتها بالفندق يوم عودتها الى زيوريخ

قلت : اهى من زيوريخ ؟ ؟

قال : نعم . .

قلت : فى زيوريخ يتكلمون الالمانية ، هل تعرف الالمانية أنت أو تفاهمتما بلغة العيون ؟ ؟ قال : انها تتقن اربع لغات

قلت : وقد وجدتنى اصفر بغيروعى : ـ عظيم ! ! !

قال : أفى هذا مايشينها فى نظرك ؟ ؟

وأردت ان اقول له نعم المرأة التى توجد وحيدة فى فندق وتحب من اول نظرة وتتقن اربع لغات لايمكن ان تكون تعلمتها فى كنيسة ، ولا بد انها اشتركت على الاقل فى اربع قصص غرام مع اربعة ابطال مختلفى الجنسيات . . . هذا اذا لم تكن بطبيعة الحال طالبة فى كلية آداب ! ! . . ولكنى خفت ان اجرحه اكثر مما هو جريح ، وتجاهلت سؤاله ، وقلت وانا ارجع به الى الموضوع الاصيل :

ــ هل قرأت فاتورة الحساب ؟؟

قال . انها هى قراتها امامى . قلت : ببطء طبعا ؟ ؟

قال : نعم .. قلت : وطــوتها ببطء ؟ ؟

قال : نعم ...

قلت : وكادت تضعها في حقيبة يدها لولا ان حدث الشيء الذي كان لابد ان يحدث ..

قال : أي شيء تعني ؟ ؟

قلت : الكرم الشرقي الاصيل .. كرم معن بن زائدة او لعله هرم بن سنان الذي كان يضع نفسه في كفه ، ويعطيها لاول سائل ! اعني انك خطفت منها الفاتورة خطفا ، ودفعت الحساب ؟ ؟

قال : وقد استحال وجهه كله لى لون قان كالدم ..

ــ الواقع ان هذا هو ماحدث تماما ...

قلت : الم تحتج على الاقل .. الم تحاول منعك .. الم تفعــل شيئا ؟

فلم يحر جوابا ... وانمــــا زاغت عيناه في الفضاء .

قلت :

ــ طبعا كان السكوت ابلغ .. وقد منحتك ابتسامة ارق مــن غلائل الورد ، واتكاءة حلوة على الساعد ، وقبلة طــويلة ايضـــا حتى قبل ان تغيبا عن الانظار ؟ ؟

فازداد وجهــه حمــرة وقلب عيناه الى الارض : لــكأني بك كنت معنا ! ! ؟

قلت : ربمــا ... كــم كانت قيمة الفاتورة ؟

قال : ٤٢٥ فرنكا ...

قلت : ثمن فادح من اجــل سبعة ايام ..

قال : لست نادما على شيء

ثم بدا له ، وكان برقا اومض في رأسه فجأة ، فعبس وجهــه

واكفهر ، وامتلأت عيناه بالسحاب وهو يشخص بهما الى خنصره الايسر ويقول :

ـ اتظنها محتالة ؟ ؟ اعنى هل يمكن أن تكون من ... من ... هؤلاء ؟ ؟

قلت : ان «هؤلاء» درجات .. من يدرى ؟ ...

ثم ألقيت القذيفة التى كنت أنكر فيها ، بلا مقدمات :

ـ أين الخاتم الذى كان يضوى فى يدك منذ سبعة ايام ؟ ؟

فارخى الشاب عينيه ، وقال فى صوت حزين : فى هذا كنت أتأمل ..

قال : لقد كنت فكرت ان ابيعه هنا واستعين بثمنه على مد اقامتى ثلاثة او اربعة شهور ..

قلت : وكاشفتها بهذه الرغبة ؟ ؟

قال : نعم ...

قلت : فما كان رايها ؟ ؟

قال : انها قالت لى لو ذهبت الى زيوريخ لوجدت فيها سوقا عظيمة للماس

قلت : ولماذا لم تذهب ؟

قال : وكيف كنت استطيع وقد اصبحت بعد دفع حسابى، انا كذلك ، وليس معى الا بضعة فرنكات ...

قلت : فأعطيتها الخاتم ... قال : نعم لتبيعه هناك

قلت : هل حددت لها ثمنا دنى ؟ ؟

قال : نعم ... ٣٠٠٠ فرنك ، ولكنها قالت انها واثقة انها ستبيعه على الاقل باربعة آلاف

قلت ـ وتعود اليك بطبيعة الحال ؟ ؟

قال : هكذا قالت ...

قلت : فماذا فعلت عندما اعطيتها الخاتم .. تذكر جيدا !

قال : لم تفعل شيئا الا ان عينيها برقتا كبريق الماس ، ثم

قالت وهى تقبلنى ... ان هذا بديع منك جدا ان تأتمننى ، انا الغريبة عنك ، على مثل هذا الكنز الثمين ... فقلت لها وانا احتضنها : انى أأتمن الطبيعة البشرية على الدوام فكيف لا أأتمنك انت ؟ ؟

ولم املك نفسى من الضحك، فقال ممتعضا : لماذا تضحك ؟ ؟

قلت : عفوا ... انما اضحك من امانة الطبيعة البشرية ... انى اعرفها منذ زمن طويل ... واعرف الغلالة الملائكية التى تسدلها عند الضرورة على جسدها البشع المجذوم ! !

وشىء ما فى كبرياء الشاب العربى المسكين ثار وتمرد ، فقال غاضبا :

ـ أعرفها كما تشاء ، أنى واثق أن النفس البشرية لا تلؤم الا اذا عوملت بقسوة ، أو جهلت من تعامل ، ولو علم السارق ظروف من يسرق لتردد مرة على الاقل فى كل ثلاث مرات ... ثم أنك لن تذلنى بهذه المائة فرنك ! !

واضطررت أن أمسك به وهو يهم بالوقوف ، وقلت له أقسم أننى لا يهمنى الا أن أنصحك قدر ما استطيع ... هل أنت طالب فلسفة ؟ ؟

قال : كلا بل خريج آداب ..

قلت : ما أقرب المشترى من المريخ ! . .

ومضت لحظات قال بعدها قلقا :

هل تظن انها تغدر بى ؟ ؟

قلت : من يدرى ؟ . . أن القدر أحيانا يصنع العجائب فى سوق الحب . . وان لم يتدخل بأعجوبة اليوم فالاغلب أنك لن تراها ، ولن ترى الخاتم بعد الآن . .

قال : ولكننا افترقنا على خير ما يفترق العشاق ...

قلت : أكنت تتوقع من امرأة أخذت منك ٤٢٥ فرنكا سويسريا ، وخاتما من الماس ، بربعة آلاف أن تمتعت بزهور شبابك سبعة أيام

... هل كنت تنتظر منها أن تضربك يوم الفراق بالقبقاب ؟. بعد قال فى شبه زمجرة مكتومة :

ـ اننى أعرف عنوانها فى زيوريخ ..

قلت : أن الصدق لم يكن الفضيلة الكبرى للص ولا للفاجرة يوم من الايام ...

قال : وقد انقلبت عيناه الواسعتان فأصبحتا كنافذتين فى فرن ، يتطلع منهما الفران الى النار ..

ـ اعطنى المائة فرنك . فأعطيته اياها ...

قال : سأذهب الى زيوريخ وأقسم لو وجدت ظنونك فى محلها ، أن أعثر عليها ولو كانت ابرة فى حمام .

قلت : هبك وجدتها .. وهبها شاءت أن تنكر ، فان كلمتك لن ترجح كلمتها أمام أى قانون .

قال : أنى بدوى ، وما نام لى جد على ضيم قط ...

قلت وقد بدأت أقلق :

ـ لكن ماتصنع هناك يومئذ وأنت غريب ؟ ..

وكدت أقول « ومفلس » ولكن الكلمة وقفت على شفتى فى الوقت المناسب ...

قال : اطمئن فسأعرف ماأفعل هناك ...

قلت : ألا يوجد لكم قنصل هنا أو سفير ؟ ؟

قال والدهشة فى وجهه : لماذا ؟ ؟

قلت : ألفه اذا لم تعد أنت أو جثتك من زيوريخ الى جنيف فى ثلاثة أو أربعة أيام ...

فضحك الشاب الشرقى الوسيم وما أقل ما أضحكه هذا الحديث وقال : لماذا أنت متشائم ؟ ؟ ..

قلت : من زمن مديد شهدت رواية فى السينما عنوانها «طريق الجسد » ... تدور حول رجل رب أسرة ووالد أولاد ... كان سعيدا جدا ، ومستقيما جدا ، ورجلا عظيما من رجال المال ..

وكلف ذات يوم من البنك الذى يشتغل فيه بحمل مليون جنيه الى بلد بعيد ... وهنـاك لقى شقراء ذات عيون تشبه الرصاص .. وفى ظرف بضعة أيام كان المليون قد سرق وكان البنكير العظيم يتمرغ فى الوحل ...

قال الشاب ، وهو شاخص ببصره فى البحيرة :

ـ لاتخف .. انى لست عجوزا ولا رب أسرة .. ولا أبا لأولاد .. ولا أنا بنكير .. انى سأذهب الى زيوريخ ، والقاها كحبيب لم يصبر على فراقها ثلاثة أيام وسوف لا أحدثها مطلقا عن الماسة الضخمة اذا لم تبدأ هى الحديث بل على النقيض سأقدم لها هدية جديدة ...

قلت مذهولا : أية هدية ؟

قال : الهدية الوحيدة التى تستطيع أن تقلب خطط أية امرأة فى الوجود

قلت : لا أفهم ...

قال : مفتاح قلب المرأة على الدوام ...

قلت : زدنى ايضاحا

قال : سأشترى لها خاتم زواج ! ! !

وفهمت فى النهاية مايعنى .. فقلت له : هل تنوى الانتحار ؟

قال : كلا ... انى قد أكون غرا ، وساذجا ، ولكنى مع ذلك أعلم أن بين الخطبة والزواج أسبوعا أو شهرا أو عاما ـ قدره ماتشاء ـ تعطى فيه المرأة أكثر مما تأخذ ، وتخلع فيه حتى ثياب البغى ، لترتدى مسوح القديس

والظروف قد تخلق عقلا للشباب فى بعض الاحيان ! !